حياة البروفسور عبد اللّه الطيِّب

د. عبد الحي القاسم عبد المؤمن عمر

١/ مولده ونسبه :

ولد شاعرنا عبد الله الطيب بقرية اسمها " التميراب " تقع على ضفاف النيل غربى مدينة الدامر فى شمال السودان فى الخامس والعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين ثلاثمائة وألف للهجرة، الموافق الثانى من يونيو عام واحد وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد (١).

أما نسبه فجعلى من أسرة المجاذيب أحدى أفرع الجعلين العرامنة واسمه " عبد الله بن الطيب بن عبد الله بن الطيب بن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب ابن آب دامع بن حمد ضمين الدامر بن عبد الله بن الحاج عيسى بن قنديل بن حمد بن عبد العال بن عرمان " (٢).

وقد تحدث عبد الله الطيب عن عرمان (جد الجعليين) فى مقدمة ديوانه أصداء النيل حيث يقول : " وعرمان فيما ذكروا هو جد الجعليين العرامنة وهم الذين يقطنون فيما بين جبل أم على والمحمية. والجعليون الذين بين حجر العسل شمالى خانق السبلوقة وجبل أم على يقال لهم العدلاناب نسبة إلى عدلان جد الملوك السعداب الذين كان منهم الملك نمر رحمه الله " (٣).

هذا وأثبت أحد الباحثين وهو عمر أحمد صديق صاحب رسالة الماجستير التى بعنوان " هذا عبد الله الطيب شاعراً " فى بحثه صورة لشجرة نسب المجاذيب على النحو التالى (٤).

من شجرة نسب السادة المجاذيب

٢ / نشأته ومراحل تعليمه :

نشأ شاعرنا عبد الله الطيب فى بيئة علمية مفعمة بنيران القرآن والذكر، حيث كانت خلاوى تحفيظ القرآن الكريم ودراسة الفقه واللغة ومختلف علوم الدين منتشرة فى كثير من المدن والأرياف، وكان للدامر الحظ الوافر من ذلك، فانفتحتْ آذان شاعرنا على سماع آيات القرآن الكريم والأشعار الجيدة فى خلاوى آبائه ومجالسهم العامرة، فحفظ القرآن فى سن مبكرة ونمت موهبته الذاتية وقدراته العقلية بصورة واضحة منذ ذلك العمر المبكر، الأمر الذى دفع والده الشيخ الطيب عبد الله إلى الاهتمام به وإعانته، فكان أستاذاً ومرشداً ومعيناً له فى كل ذلك، " ثم كانت جدته التى أوتيت حظاً من جلد وقوة، ونصيباً من حفظ الأخبار والآثار والسيّر، فورث عنها جلداً وأفاد منها علماً، وأحسب أنّ لها كفلا فى تكوين خياله المرع الخصيب، وذلك بما تقصه عليه من قصص وأساطير ظلت تدور فى نفسه حتى سجلها فى الأحاجى جفيل وجفيلة، والغول وفاطنة السمحة، ويا جلابة. ولم يقف تأثير ذلك لمسند تخصيب الخيال وتوسيع المدارك، بل تعداه إلى فهمه المستقل المعجب للأشعار العربية، وما فيها من حديث الخرافة والأسمار والأباطيل " (٥).

هذه كما أفاده أيضاً تنقل أسرته من بلد لآخر بحكم عمل والده فاتسعت مداركه بمعرفة كثير من المدن والقرى ومعايشة أهلها مثل مدينة كسلا فى شرق السودان (٦)، وقد خلد تلك الذكريات فيما بعد فى أشعاره.

ولم تمض إلا سنوات قليلة من هذه البداية حتى انتقل والد شاعرنا إلى رحمة مولاه فى يوم الثلاثاء الثامن عشر من مارس سنة ١٩٣٣م، وتركه

فى بداية رحلته التعليمية ليحل عام (٧) ١٩٣٤م بحزن آخر كبير، وهو وفاة شقيقه الأصغر (٨) حسن الطيب الذى مات غريقاً فى السادسة من عمره، فأحدث ذلك جرحاً غائراً فى نفسه لم يقو على نسيانه طوال حياته، وقصائده تنضح بذاك الحزن فى مواضع مختلفة من دواوينه، فنجد القصيدة الرثائية الكاملة والأبيات المتفرقة هنا وهناك يبكى فيها حسناً.

ولعل شاعرنا كان يعقد كل آماله بعد وفاة والده على شقيقه هذا وأنه سيكون الرفيق والصديق والأخ فى مشوار حياة لا يخلو من مشقة وعناء لأسرة فقدت راعيها الأوّل، ولكن القدر حال بينه وبين تلك الأحلام.

وفى المشهد التالى يصّور لنا حال والدته وجدته وهما تتلقيان خبر وفاة ابنيهما المروِّع بقلوب راضية بقضاء الله وقدره، حيث يقول :

وقد ذكرت بذاك القفر والدة — ريعت غداة نعى الناعى لها حسنا
إذ فارقته قريباً إذ يقول لها — لَمَا دعته ذرينى ألعبنَّ هنا
إذ كان يلعب حرّاً إذ تربص لد — عصفور إذ خلفه صلُّ الردى كمنا
لما أتت من ضريح الشيخ فاجأها — برفع كفيه ناع لم يكن فطنا
وجدة أبلت البلوى شكيمتها — وكان مُرُّ الليالى بالأسى قمنا
قالت ألا فاكشفوا عنه لنبصره — والشكل مُرٌّ وحملُ المثقلات عنا
لما رأتْ جسمه غضاً كما عهدت — والروح فارق من ذريابه البدنا
قالت أمات غريقاً أم أتيح له — حتف سوى ذاك أم ريب المنون أنى (٩)

وقال فى أخرى :

لها بشر كالثلج والعاج واللبن — وأحزننى لما تذكرته حسن
وكنا تحدثنا عن الموت إنه — رهيب وفى أجفانها ذلك الوسن
وكان حديث بيننا دام ساعة — له أثر باق لدينا مدى الزمن (١٠)

هذا ويذكر أخاه زمناً طويلاً ويشكى الفراق العصيب، بل تكاد لا تفارقه ذكراه حتى آخر عمره، حيث يقول فى قصيدة بعنوان " برق المدد بعدد وبلا عدد " وهى من أخريات ما قدمه للقراء، يمدح فيها المصطفى ρ :

أخى حسن يا ليته قد تقدما — به العمر كى يُلفى لنقصى متمما
ألم ترنى دمعى لذكراه قد همى — فمرا على قبرين فى دامرهما

أبى ثم أمى وهو من بعـد ثالث (١١)

ولم تقف الأحداث المحزنة عند هذا الحد بل تابعت ملاحقتها ليبتلى شاعرنا بعد أربع سنوات من وفاة أخيه بوفاة والدته عائشة أيضاً، ولكن كل هذه المصائب التى توالت عليه لم تثنه عن مواصلة سيره فى التعليم، بل مضى فى دربه عازماً موقناً بتوفيق الله ونصره، يسنده شيخه الشاعر الأديب مجذوب جلال الدين الذى كان أستاذه ومعينه ومرشده بعد وفاة والده، وتريك بعض قصائده وإهداءاته الحبَّ العميق والصلاة الوطيدة التى تربط بين الشيخ المجذوب الذى صار الأب الثانى له، ونطالع فى أوّل ديوانه بانات رامة هذا الإهداء : " إلى الوالد الأستاذ، الشاعر، العلامة، الفقيه، الندس، النجيب الأديب الشيخ محمد مجذوب جلال الدين حفظه الله وأطال بقاءه " (١٢).

وقال فى رثاء صديقه الشاعر محمد المهدى بن الشيخ جلال الدين :

ووالده قد كان من بعد والدى أبى وهو لى صنو به وخدين (١٣)

هكذا وجد من عمه الرعاية والرأفة والتوجيه حتى وصفه بـ " الولد " الذى لا يضن بذله ولا يستتر :

قد كان يرأف بى والعلم كان به لا ضنَّ يوماً ولا عن بذله استترا

وكان الشيخ جلال الدين – كما يقول شاعرنا – بحراً فى النحو والإعراب والبيان، وذا معرفة واسعة بالقرآن وكلام العرب شعرهم ونسرهم :

وكان فى النحو والإعراب ذا قدم وفى البيان لعمرى بحره ذخرا

وعارف بكتـاب الله يقرأه غضاً يجوِّد منه الآى والسورا

الحبر والنبر والتقليل والنكت التى داريتها قد تعجز النظر(١٤)

عهدى به مشرق الإقبال يشرح أبيات الثريا ودراً مثله نثرا

وقد أفاد شاعرنا من كل هذه العلوم من شيخه ومهّد بها الطريق إلى غايات بعيدة، ولم ينس أنْ يسجل كل ذلك الفضل للشيخ الوقور الذى علمه ورباه :

منه تعلمتُ علماً نافعاً وبه نلتُ الرواية عن آبائه الفقرا (١٥)

هذا وكان لتلك النشأة البيئية الكريمة التى تلقاها أستاذنا عبد الله الطيب أثرها الذى لا يزول حتى بعد أن واجه مجتمعاً غريباً ذا حضارة مغايرة وتوجيه مادى صفيق :

ألا ليت شعرى أى عفريت جنة أتاحك هذا الحب يا ابن المساجد (١٦)

فهو يتساءل فى هذا البيت متعجبـاً كيف تسنى له معايشة تلك البيئة

الغريبة حتى وقع فى حب حسانها وهو ابن الخلاوى والمساجد التى لا تعرف إلا " اللوح والقلم " ؟!

أكمل عبد الله الطيب دراسته فى الخلوة وتخرَّج فيها حافظاً لكتاب الله لينتقل بعد ذلك إلى التعليم الحكومى بالمدارس النظامية، وفيها أظهر تفوقاً كبيراً على زملائه مما أتاح له القبول مجاناً بالمرحلة الابتدائية ببربر، وكانت تدرس فيها آنذاك بعضاً من أشعار فحول الشعراء العرب وشئ من الشعر الإنجليزى، ونتف من الكتاب المقدس كالغاز خبر شمسون وقصة يوسف وإخوانه، إلى جانب الرياضيات والعلوم والجغرافيا والتاريخ ولما تدرج بهم الأمر فى تلك المرحلة التعليمية اطّلعوا على قطع من أشعار وسونيتات شكسبير وردبارد كيلنج وكتس وشلى (١٧).

ألحق شاعرنا – بعد ذلك – بمدرسة بربر المتوسطة ونبغ غاية النبوغ فبعث منها إلى كلية غردون التذكارية بالخرطوم، وبعد ثلاث سنوات من الجد والمثابرة حصل على شهادة المدارس الثانوية فى تخصص الآداب.

والتوفيق يلازم شاعرنا فيرسل إلى بريطانيا ملتحقاً بجامعة لندن أولاً بمعهد تربيتها، وثانياً بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، فينال منها الشهادة الوسطى فى اللغة العربية والتأريخ والمنطق وفى عام ١٩٤٨م نال شهادة البكلاريوس ليحصل بعد عامين فقد من ذاك التاريخ على درجة دكتوراه الفلسفة من نفس الجامعة وكانت فى اللغة العربية التى بذل لها كل اجتهاد وصبر ومثابرة فى حياته ليعود إلى بلاده برفقة زوجته الإنجليزية جوهرة (١٨).

٣/ جهوده فى مجال التعليم :

أكمل عبد الله الطيب دراسته فى لندن وعاد إلى السودان سنة ١٩٥١م وتولى فور عودته رئاسة شعبة اللغة العربية بمعهد التربية ببخت الرضا، وأشرف على مناهج اللغة العربية بالمدارس الإبتدائية، وقد أتاحت له تجربته فى أوربا أن يدخل كثيراً من النظريات الحديثة التى استطاع أنْ يطور بها كثيراً من مناهج الدراسة فى السودان، فكان له فى ذلك فضل أمتد إلى سنوات طويلة توارثته أجيال عن أجيال (١٩).

عمل فى عام ١٩٥٤م محاضراً بكلية الخرطوم الجامعية التى تطورت إلى جامعة الخرطوم فيما بعد، وفى عام ١٩٥٦م، وهو العام الذى نال فيه السودان استقلاله، منح شاعرنا درجة الأستاذية " بروفيسور " ليتم اختياره بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ عميداً لكلية الآداب، فكان أوّل عميد سودانى لكلية الآداب فى جامعة الخرطوم (٢٠).

وقد بذل خلال هذه السنوات جهداً كبيراً من أجل تطوير الجامعة والوصول بها إلى مصاف الجامعات العالمية الحديثة، حيث أدخل مادتى اللغة الفرنسية واللغة الروسية، الأمر الذى دفع فرنسا إلى منحه جائزة النحلة للدولة، وهى أكبر جائزة فرنسية تمنح لرجال العلم والأدب والفنون آنذاك، وتبعاً لذلك أيضاً دعته روسيا لزيارتها، فلبّى دعوتها ووجد من حكومتها ومؤسساتها العلمية كل قبول وترحيب وعرفان.

وفى عام ١٩٧٤م تم تعيينه مديراً لجامعة الخرطوم التى شهدت فى فترة إدارته تطوراً كبيراً على المستوى الاقتصادى والعمرانى والتوسع الأفقى لينتقل منها إلى إدارة جامعة جوبا كأوّل مدير لها سنة ١٩٧٥م وفى عام ١٩٧٧م

أصبح عبد الله الطيب أستاذاً ممتازاً مدى الحياة فى جامعة الخرطوم.

هكذا كان عبد الله الطيب فى بلاده عطاءً متدفقاً لا ينضب معينه ففى سنوات قليلة استطاع أن يحقق من الإنجاز ما بقيت وستبقى آثاره إلى ما يشاء الله (٢١).

ولم ينحصر هذا العطاء داخل حدود السودان بل امتد إلى غيره من البلدان الأفريقية وغيرها ليضع بصمات واضحة فى مجال العلم والمعرفة فى عدد من الدول الأفريقية والعربية ظل بها السودان يذكر بكل خير ومعروف إلى يومنا، ففى نيجيريا أسس كلية عبد الله بايرو بجامعة أحمد وبيلو التى تحولتْ فيما بعد إلى جامعة قامت بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية سنة ١٩٨٨م، وكان قد منح قبلها ثم بعدها عدداً من الشهادات الفخرية من الجامعات السودانية، تقديراً لجهده وما بذله فى سبيل خدمتها.

هـذا وكان لشاعرنا حب خاص لنيجيريا وأهلها لما لمس منهم سماحة أخلاق وبساطه مسجلاً من ذلك فى أشعاره الكثير كقولـه فى قصيدة بعنوان " إبادان " :

ليت شعرى إلى إبادان هل تذ كر عهدى أم غيبته الغيوب
قد ذكرت الفردوس منها وأيا م إبادان ذكرهن يطيبُ
ولقد قيل إن فى ليلها الغيـ سلة هيهات ليلها مشبوبُ
حركتنى منى الشجون إليها والمزار الدويم أو حنتوب (٢٢)

وتغزل فى حسانها فقال :

وإبادان أطربتنا إلى ذكـ رى ملاح شبابهن شبيب
وما علينا إذا صبونا إليـ هن جُناح فى الحب أو تثريب (٢٣)

ومثل حب النيجيرين له كان حب أهل المغرب التى شغل فيها كرسى الدراسات العليا فى كلية الآداب واللسانيات بجامعة سيدى محمد بن عبد الله فى المغرب بفاس التى لم ير نفسه فيها غريباً بل هى وطنه الثانى بعد الخرطوم التى كان فيها منشأه ومرعاه :

ألم ترنى فى "فاس" غير غريب ومرعاى فى الخرطوم غير جديد(٢٤)

كانت تلك بشكل مجمل بعض جهود شاعرنا فى مؤسسات التعليم فى السودان وخارجه، أما خارج مؤسسات التعليم التربوية فله أيضاً أدوار كبيرة فاعلة نذكر منها لجمع اللغة العربية بالقاهرة حيث كان عضواً عاملاً فى هذا المجمع منذ مارس ١٩٦١م وعلى أثر ذلك قام – ومن موقع الرئيس – بتأسيس مجمع اللغة العربية فى السودان.

ومن أسخى عطاياه التى انتفع بها كل كبير وصغير ومتعلم وأمى هو تفسيره للقرآن الكريم بصورة مبسطة قريبة إلى أفهام عامة الناس فى السودان وخارجه عبر الإذاعة السودانية بتلاوة الشيخ القارئ صديق أحمد حمدون، فى الفترة ما بين ١٩٥٨ إلى ١٩٦٩م. واستمر بثه من ذلك الوقت إلى اليوم، كما بث له التلفزيون محاضرات أسبوعية تحت مسمى " محاضرة الأسبوع " استمرت لفترة طويلة من الزمن.

٤/ ثقافتــه :

الحديث عن ثقافة العلاّمة عبد الله الطيب يحتاج إلى مساحة كبيرة ذلك أنّ الرجل مرّ فى حياته عبر تجارب عديدة واستقى من مناهل شتى لبناء شخصية قلَّ أن يجود الزمان بمثلها، وليس الغرض هنا تتبع كل ذلك موضوعاً موضوعاً، وإنما مرادنا الإشارة إلى بعض أهم المصادر التى نهل منها وأضفت فى شعره آثاراً لا تخطئها العين وأول ما ينهض أمام أعيننا ونحن نقرأ أشعاره ونسترجع معانيه وألفاظه وتراكيبه القرآن الكريم، فهو عماد ثورته المعرفية ومصدر انطلاقه عبر كل المراحل، وبفضله – كما يقول – أشرق قلبه وصح جسده ولمع عقله وهلك أعداؤه :

يشرق فى قلبى بترتيل آ يات كتاب الله منه السواد
يسره للذكر رب العبـاد وفيه للفكر مجال إرتيـاد
صح به الجسم كما صح لى بفهمه الفهم فنعم العتـاد
وتم لى فيه هلاك العـدا بأسرهم من حضرى وباد (٢٥)

هذا وأثر ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه فى شعر عبد الله الطيب شئٌ لا تخطئه العين، وهذا يكشف لنا سر ضخامة قاموسه الشعرى واتساع معانيه ورحابة خياله، بل حتى تعدد أوزانه وقوافيه فكم من شاعرنا فى عصرنا نجده برغم ما حظى من موهبة – قد حصر نفسه فى معان محدودة وألفاظ مكرورة وأوزان معروفة وقوافة تعد على أصابع اليد الواحدة وما ذاك إلا لمحدودية المعرفة وضيق الأفق وانحصار الألفاظ فى دائرة لا تتجاوزها.

وقد كسر شاعرنا عبد الله الطيب هذا القيد منذ صباه متزوداً بمعين القرآن الذى لا تحده حدود، وإذا تتبعنا الألفاظ وحدها نجد ما لا حصر له من المفردات القرآنية التى بثهـا فى أبيات شعره دون تكلف فامتلأ بها اللفظ حلاوة ورقة،

وسيرد – إن شاء الله – فى الفصول التطبيقية ومباحثها – حديث عن شئ من ذلك.

هذا وإلى جانب القرآن الكريم ودراساته والفقه والسيرة وعلوم الحديث وكافة فروع العلوم الإسلامية التى نهل منها فإنه أيضاً أتيح له من عهد غير قريب الاطلاع على أمهات كتب الشعر واللغة وحفظ بذاكرته الحديدية قدراً وافراً من شعر فحول الشعراء العرب وقرأ قدراً كافياً من نثر الفصحاء منذ عمر مبكر جداً (٢٦)، فكان ذلك مورداً احتل مرتبة كبيرة فى موارد ثقافته ومناهلها كما قرأ شعر آبائه وأجداده من عاصر منهم ومن سبقوه، يقول فى مقدمة ديوانه أصداء النيل : " هذا ومن ديوان الشيخ المجذوب T تعلمتُ حبَّ الشعر والعربية أولاً، ثم من أبى رحمه الله، وقد أقرأنى كثيراً من شعر شوقى ومن قصائد مسلم بن الوليد وأبى تمام التى فى كتاب مختارات البارودى، وكنت مما أطيل النظر فيه، وكان الوالد رحمة الله عليه كثيراً ما ينشدنى منه قوله :

لولا يزيد وأيام لنا سلفت عاش الوليد مع الغرين أعواما
إذا الخلافة عدت كنت أنت لها فخراً وكان بنو العباس حكاما (٢٧)

وانتهل شاعرنا أيضاً من روح التصوف السائدة فى بيئته التى نشأ فيها فنجد لذلك أثراً واضحاً فى شعره متأثراً بأشعار أجداده وآبائه، فهو القائل فى قصيدة بعنوان " قصيدة نبوية " :

ألا يا رعى الله الذين توسدوا لدى العدوة القصوى صعيداً مُطيَّبا (٢٨)

والدعوة هنا لأهله أو كما يقول :

أولئك قومى لا يزال لذكرهم رئى إذا ما صادح الفجر أطربا (٢٩)

فـ" العدوة القصوى " مما يتردد فى أشعار الصوفيّة أمثال الشيخ محمد مجذوب بن الشيخ الطاهر حيث يقول (٣٠) :

بانت عن "العدوة القصوى" بواديها عيس كأن خوافيها بواديهـا

وعلى طريقة المتصوفة يختم عبد الله الطيب قصيدته تلك :

لعل رسول الله أرغب من دعا إلى الله قلباً فى الأنام وأرحبا
وأصدقهم فى حجة الله لهجة وأقطعهم إن صارم باثر نبـا
وأكرمهم جدّاً وأكرمهم أبـا وأكرمهم خالاً وعمّاً ومنسباً
يعين به الرحمن قوماً أعزة أذلهم جور عليهم تقلبـا
عليه من المولى سلام ورحمة أخفُّ من النكبا وأذكى من الكبا (٣١)

تلك فقط بعض ملامح من المصادر والمناهل التى استقى منها شاعرنا ثقافته، والواقع أنّ التجارب الطويلة والفرص العديدة التى أتيحت له قد أكسبته معارفاً لو تتبعناها لطال بنا الحديث، ذلك أنّه لم يقف عنده الأمر فقط على ثقافات العرب والمسلمين، بل أيضاً غاص فى الثقافات الغربية وبخاصة الأدب الإنجليزى الذى تكشفت له فيه جوانب عديدة من خلال مدارسة أعمال شعراءهم وأدبائهم أمثال شكسبير وغيره.

٥ / وفاتــه :

فى عصر الخميس التاسع عشر من يوليو عام ٢٠٠٣م وافت المنية شاعرنا عن عمر يناهز الـ ٨٥ عاماً بعد صراع طويل مع المرض استمر أكثر من عامين وورى جثمانه الثرى فى مقابر حلة حمد في شمال الخرطوم في موكب شارك فيه آلاف من المواطنين يتقدمهم تلاميذه وكبار المسئولين وأساتذة الجامعات والأدباء والمفكرون فى السودان، وقد نعته الحكومة السودانية وكذلك السفارة السودانية في لندن وكل الدول الأفريقية والعربية التي عرفته من خلال علمه وما قدمه من جهد طوال حياته. وبوفاته فقد السودان عالماً جليلاً وأديباً عظيماً وشاعراً كبيراً قل أن يجود الزمان بمثله.

٦ / آثاره العلمية :

لعبد الله الطيب العديد من المؤلفات أبرزها " المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، وهو سفر ضخم يتألف من أربعة أجزاء بسط فيه حديثاً وافياً عن الشعر العربى من مناح متعددة، حيث تحدث فيه عن معانى الشعر العربى وأساليبه وأخيلته وله فيه نظرات نقدية ثاقبة لا تتوفر فى غيره من كتب المعاصرين، كما تحدث فيه بصورة واسعة عن موسيقى الشعر العربى، وقال فيها مما يتعسر وجوده فى غيره عبر جميع العصور، وأصبح المرشد مصدراً لا غنى عنه لكل دارس للأدب العربى، وقد قرأ الكتاب عدد من كبار العلماء فى القرن الماضى أمثال العقاد، وقدَّم له الدكتور طه حسين معترفاً بقدره وغزارة فوائده حتى وصفه " بالطرفة الأدبية النادرة "، قال : " وأنا سعيد بتقديم كتابه هذا إلى القراء، لأنى إنما أقدم إليهم طرفة أدبية نادرة حقاً، لن ينقضى الإعجاب بها والرضى عنها، لمجرّد الفراغ من قراءتها، ولكنها ستترك فى نفوس الذين سيقرؤنها آثاراً باقية، وستدفع كثيراً منهم إلى الدرس والاستقصاء، والمراجعة والمخاصمة. وخير الآثار الأدبيـة عندى، وعند كثير من الناس، ما أثار القلق، وأعزى بالاستزادة من العلم، ودفع إلى المناقشة وحسن الاعتبار " (٣٢).

هذا وتحدث الدكتور طه حسين عن المنهج والأسلوب الذي سار عليه عبد الله الطيب في مرشده بعبارات موجزة ولكنها غاية في الدقة حيث يقول : "وأخص ما يعجنى في هذا الكتاب، أنّه لاءم بين المنهج الدقيق للدراسة العلمية والأدبية وبين الحريّة الحرّة التي يصطنعها الشعراء والكتاب، حين ينشؤون شعراً أو نثراً، فهذا الكتاب مزاج من العلم والأدب جميعاً، وهو دقيـق مستقص حين يأخذ في العلم، كأحسن ما تكون الدقـة والاستقصاء، وحـرّ مسترسل حين يأخـذ فـي الأدب كأحسن ما تكون الحريّة والاسترسال، وهو من أجل ذلك يُرضى الباحث الذى يلتزم في البحث مناهج العلماء، ويُرضى الأديب الذى يرسل نفسه على سجيتها، ويخلى بينها وبين ما تحب من المتاع الفنى، لا تتقيد في ذلك إلا بحسن الذوق، وصفاء الطبع، وجودة الاختبار " (٣٣).

ولعبد الله الطيب إلى جانب المرشد عدد وافر من المؤلفات منها " تفسير جزء عم " و " التماسة عزاء بين الشعراء "، وكتب فى

الغربى " كلمات من فاس " وله أيضاً " ذكرى صديقين " وهو كتاب أدبى نقدى تعرّض فيه للشعر العامى والشعر الفصيح، ونثر فيه بعض آراءه النقديّة، كما اشتمل أيضاً على بعض ذكرياته مع الأدباء والشعراء، وهو كتاب شيّق غزير الفوائد، وجمع ذكرياته منذ الخلوة مروراً بالمدارس الحكوميّة إلى كلية غردون التذكارية وغيرها فى كتاب أسماء " من حقيبة الذكريات "، وشرح أربع قصائد لذى الرّمة ووقف مع المتنبئ فى مؤلف بعنوان " مع أبى الطيب "، وشرح " القصيدة المادحة "، والّف أقتداء بأبى تمام كتاباً سمّاه " الحماسة الصغرى " وكتب فى القصة " زواج سمر " و " الغرام المكنون " وغيرها...

وقد عنى كثيراً بجمع أشعاره ومراجعتها وتقديمها للقارئ فنشر الكثير منها فى دواوين مختلفة وبقيت بعضها مجموعة أو متفرقة لم تنشر، وهو لما حباه الله من معرفة موسوعية بأسرار العربية بفروعها المختلفة كان ذا قدح معلّى وبيان رصين فى هذا المجال أو كما يقول :

ولى فى الشعر تجربة ونضج وفرسان البلاغة لى قبيل
فلا تحزن فإن الشعر يشقى إذا ما حزّ فى الصدر الغليل
وأدرك أنه للشعر سرٌّ به يشفى من السقم العليل (٣٤)

ولعبد الله الطيب باع طويل فى موسيقى الشعر العربى أفرد لها مساحة كبيرة فى مرشده ولكنه لا يتكلف شيئاً من ذلك عندما يهم بكتابة بيت أو مقطع أو قصيدة ليعدد قوافيه – مثلاً – أو أوزانه ونحو ذلك وإنما يدع القافية تختار رويها والبيت يختار بحره يقول فى مقدمة ديوانه أغانى الأصيل : " وما تسئ من هذا الديون هيأت لنظمى فيه وزناً وقافية أوّل الأمر ثم نظمت على ذلك من بعد فهذا مذهب من التكلف لا يعجبنى "، وقال : "... لم أكن أعتمد وزناً بعينه أو قافية بعينها وإنما أدع حرف الروى يختار " (٣٥).

ومن دواوينه " بانات رامة " وهو ديوان ضخم يكاد يكون أكبر ديوان له يتألف من حوالى ثلاثمائة صفحة اشتمل على ست وستين قصيدة هى من طوال قصائده الناضجة، و " بانات " : جمع بانة وهى شجرة و " رامة " اسم موضع، ويكنى فى الشعر بالمواضع عن عهود الوداد وبالشجر عن الحبيبات (٣٦).

وديوان " أغانى الأصيل " وأكثر قصائده غزلية، وديوان " سقط الزَّند الجديد " وتسميته مأخوذة من " سقط الزّند " لأبى العلاء المعرّى، و " الزّند : هو أوّل ما يتساقط من النّار (٣٧).

وله أيضاً " اللواء الظافر " و " نغمات طروب " و " أربع دمعات على رجال سادات " والأخير يشتمل على أربع قصائد رثائية، وطبع مؤخراً قصيدة فى مدح المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام بعنوان " برق المدد بعدد وبلا عدد " فى ديوان مستقل سماه باسم القصيدة، وقال فى مقدمته : " وقولى " برق المدد " فيه إشارة إلى منظومتين جعلتهما نموذجاً وتأثرت بروح أنغامهما، وهاتان المنظومتان هما : " سر المدد والشهود " للشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين T و " البراق " للسيِّد محمد عثمان الختم الميرغنى T. وأما قولى بعدد وبلا عدد، فأردت به أنّ مجموعات منظمتى وهى تسع وعشرون كل مجموعة منها ذات قطع تلتزم فى شطرها الخامس حرفاً هجائياً واحداً بدءاً بالهمزة وانتهاء بالياء، لم التزم فيها فى كل مجموعة بنفس العدد من القطع.. (٣٨).

وأوّل القصيدة :

مع الحمد باسم الله ذا النظم أفتتح نصلى على الهادى نسلم نمتدح
رسولاً به درب الهداية متضح وليس بلا حب له ديننا يصح
ونحن به من كل سقم سنبرأ (٣٩)

وهذا النوع من النظم على مجموعات خماسية أو تزيد اسمه التسميط.

وله قصائد أخرى فى مدح المصطفى ρ متفرقة فى دواوينه.

أما فى الأغراض الشعرية الأخرى فقد كتب فى أكثر الأغراض القديمة كالمدح والفخر والغزل والرثاء والهيجاء والوصف والحكمة، كما كتب فى الوطن والأخوانيات والمسرح وغيرها من الأغراض الحديثة.

وممن تعرض من النقاد لشعره الأستاذ محمد مصطفى هدارة صاحب كتاب " تيارات الشعر العربى المعاصر فى السودان "، قال: "وأوّل ما يطالع قارئ شعر عبد الله الطيب المجذوب إحساسه بأن الشاعر يعيش فى إطار شعرى قديم" (٤٠)، وقد مهد هدارة بهذه العبارة

لحديث طويل عن عبد الله الطيب وشعره لا يخلو فى كثير من جوانبه من تحامل وتقليل فضل حتى تجاوز فى بعض الأحيان الحديث عن الشعر وتطرق إلى نقد شخصه كقوله : " وهو فى الحقيقة يعتبر نموذجاً مثالياً لأنواع من الاضطراب والتحير لا فى مذهبه الأدبى ولكن فى تكوينه النفسى وشخصيته الواقعية، فهو من أسرة المجاذيب الراسخة الدين، ذات الأصول الصوفية المعروفة، ولكنه فى حياته الخاصة لا يقيم وزناً كبيراً للدين " (٤١).

فعبارته : " لا فى مذهبه الأدبى فحسب، ولكن فى تكوينه النفسى وشخصيته الواقعية " تكشف بوضوح رغبة هدارة فى التقليل من فضله لا الحديث عن شعره فقط وإلا فما علاقة ما قاله بلغة الشعر وتراكيبه وألفاظه وصوره وأخيلته.

هذا وقد ناقش الباحث عمر أحمد صديق صاحب رسالة الماجستير التى بعنوان " هذا عبد الله الطيب شاعراً " مصطفى هدارة فى حديث أكثر تفصيلاً يمكن الرجوع إليه هناك (٤٢).

الهوامش

١. ينظر ما بعد الرحيل الأخضر عبد الله الطيب : إعداد عبد الرحيم حسن حمزة، ص١٧، مؤسسة أروقة للثقافة والعلوم، الخرطوم، السودان، ط١، ٢٠٠٣م.

٢. هذا عبد الله الطيب شاعراً : عمر أحمد صديق، ص٦٩، رسالة ماجستير إشراف الدكتور بشير عباس بشير، جامعة أم درمان الإسلامية، ١٩٩٠م.

٣. ديوان أصداء النيل : عبد الله الطيب، ص٣.

٤. ينظر المرجع نفسه، ص٧٠، وينظر ديوان نار المجاذيب لمحمد المهدى المجذوب، ص١، فى المقدمة، مطبعة التمدن، الخرطوم، السودان، د ط، ١٩٦٨م.

٥. هذا عبد الله الطيب شاعراً : عمر أحمد صديق صفحة ٧١ رسالة ماجستير، نقلاً عن الأستاذ بروفيسور عبد الله الطيب : د. الحبر يوسف نور الدائم، ص٩.

٦. ينظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

٧. من حقيبة الذكريات : عبد الله الطيب، ص٣٨، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط١، ١٩٨٣م.

٨. لعبد الله الطيب ست أخوات وشقيق واحد كلهم رحلوا إلى الفانية إلا " فاطمة " وهم على الترتيب : آمنة.. عبد الله.. فاطمة.. حسن.. أم الخير.. أم الحسن، والشقيق الوحيد " حسن " : ينظر ما بعد الرحيل الأخضر : عبد الرحيم حسن حمزة ومن حقيبة الذكريات : عبد الله الطيب، ص٣٨.

٩. ديوان بانات رامة : عبد الله الطيب، ص١٤٩و١٥٠، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.

١٠. ديوان أغانى الأصيل : عبد الله الطيب، ص١٤، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، السودان، ط١، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

١١. ديوان برق المدد بعدد وبلا عدد : عبد الله الطيب، ص٦، دار جامعة أفريقيا العالمية للطباعة، د ط، د ت.

١٢. بانات رامة : عبد الله الطيب، ص٥.

١٣. ديوان أربع دمعات على رجال سادات : عبد الله الطيب، ص٧، مطبعة التمدن المحدودة، د ط، د ت.

١٤. المصدر نفسه، ص٢ و ٣.

١٥. أربع دمعات على رجال سادات : عبد الله الطيب، ص٢.

١٦. هذا عبد الله الطيب شاعراً : عمر أحمد صديق، ص٧٤، رسالة ماجستير، نقلاً عن الأستاذ بروفيسور عبد الله الطيب، د. الحبر يوسف نور الدائم، ص١٠.

١٧. من حقيبة الذكريات : عبد الله الطيب، ص٣٢.

١٨. ما بعد الرحيل الأخضر : عبد الرحيم حسن حمزة، ص١٧، وجوهرة اسمها الأجنبى قريز الدا.

١٩. ينظر ما بعد الرحيل الأخضر : عبد الرحيم حسن حمزة، ص١٥، وينظر هذا عبد الله الطيب شاعراً، ص٩٣.

٢٠. ينظر هذا عبد الله الطيب شاعراً : عمر أحمد صديق، ص٩١، رسالة ماجستير.

٢١. ينظر ما بعد الرحيل الأخضر : عبد الرحيم حسن حمزة، ص١٥.

٢٢. بانات رامة : عبد الله الطيب، ص٢٨، وإبادان هى كبرى مدن نيجيريا بالإقليم الغربى وبها الجامعة المشهورة باسمها، ينظر هامش بانات رامة، ص٢٦.

٢٣. المصدر نفسه، ص٢٩.

٢٤. هذا عبد الله الطيب شاعراً : عمر أحمد صديق، ص٩٣، رسالة ماجستير، نقلاً عن ديوان نغمات طروب : عبد الله الطيب، ص٢٠، تحت الطبع.

٢٥. ينظر هذا عبد الله الطيب شاعراً : عمر أحمد صديق، ص٧٨. نقلاً عن ديوان نغمات طروب : عبد الله الطيب، ص٣.

٢٦. ينظر ديوان سقط الزّند الجديد : عبد الله الطيب، ص٦ وما بعدها، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، السودان، ط١، ١٩٧١م.

٢٧. أصداء النيل : عبد الله الطيب، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٠م، ص٨.

٢٨. أصداء النيل : عبد الله الطيب، ص١٤٩.

٢٩. المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٣٠. ينظر هذا عبد الله الطيب شاعراً.

٣١. أصداء النيل : عبد الله الطيب، ص١٥.

٣٢. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : عبد الله الطيب، الجزء الأوّل، ص٨، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، السودان، ط٤، ١٩٩١م.

٣٣. المرشد إلى خصم أشعار العرب : عبد الله الطيب، ج١، ص٨.

٣٤. هذا عبد الله الطيب شاعراً : عمر أحمد صديق، ص٩٥و٩٦. نقلاً عن ديوان نغمات طروب : عبد الله الطيب، ص٥٠.

٣٥. أغانى الأصيل : عبد الله الطيب، ص١٢.

٣٦. ينظر بانات رامة : عبد الله الطيب، ص٧.

٣٧. ينظر سقط الزّند الجديد : عبد الله الطيب، ص٥.

٣٨. برق المدد بعدد وبلا عدد : عبد الله الطيب، فى المقدمة.

٣٩. المصدر نفسه، ص١.

٤٠. تيارات الشعر العربى المعاصر فى السودان : د. محمد مصطفى هدّارة، ص١٤٦، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ط، ١٩٧٢م.

٤١. تيارات الشعر العربى المعاصر : د. هدارة، ص١٤٥و١٤٦.

٤٢. ينظر هذا عبد الله الطيب شاعراً : عمر أحمد صديق، ص٤٠٢.